توطئة

على حافة المدينة

فى شتاء عام ٢٠٠٣، كنت أتجول بين صفوف لكتب حوتها إحدى مكتبات لندن من تلك التى تبيع أدبيات "الإسلام الراديكالى" ... مكتبة تنتمى لفصيل من مكتبات أكسبت العاصمة البريطانية اسما ذا دلالة ومعان : "لندنستان" ... والمكتبة مكسة بلافتات وملصقات تدعو لسقوط "المجتمعات الحرة"، ولسان حالها التشكك فى مدى انطباق مفهوم "حرية التعبير"، ومن ثم ما يسمه من نقائص وعوار، فضلا عن انطوائها على تجسيد للمصاعب والمشاكل التى تواجه المجتمعات المسلمة فى أوربا.

وكأحد مرتادى المكتبة المنتظمين، رحت أتجول خلالها فاسترعى نظرى خريطة للعالم ... خريطة غريبة[٢] غير مألوفة لونت بلدانها وفقا لنسبة المسلمين بها. فالأخضر المدهام للبلدان ذات الأغلبية المسلمة، أما الأخضر الأخفت ظلا، وكذا الأصفر و"البيج" فللبلدان الأقل كثافة فى أعداد المسلمين بها ... ذلك الطابع النمطى للإسلام السياسى الذى ينحو إلى تقسيم العالم إلى "هم" و"نحن"، حيث عامل التقسيم الأوحد : "الدين". أما حواف الخريطة فترصعها تصاوير للمساجد الأكثر شهرة – المسجد الحرام بمكة المكرمة (مهوى أفئدة الملايين من الحجيج كل عام)، والمسجد الأقصى وقبة الصخرة فى فلسطين (إلى حيث أسرِى بالنبى محمد من المسجد الحرام، ومعراجه إلى السماء)، والجامع الأزرق وهو جامع السلطان أحمد فى اسطنبول بتركيا، والمركز الإسلامى فى ميونيخ.

المركز الإسلامى فى ميونيخ؟! ما أغرب هذا! إننى أكتب فى أمور "الدين" فى أوربا وأرجاء أخرى من المعمورة منذ سنوات ليست بالقليلة، كذا فقد أمضيت سنوات عديدة فى ألمانيا. ولقد علمت بأمر هذا المسجد كمقر لواحدة من المنظمات الإسلامية الصغيرة هناك، إلا أنه يصعب تخيل أن يدرج المسجد مع تلك المساجد الجليلة المهيبة كتفا بكتف. إذ ليست ميونيخ مركزا للإسلام، وليس المسجد هو الأكبر فى ألمانيا، ناهيك عن أوروبا بأسرها. بيد أن مسجد ميونيخ ذو قامة باسقة وهامة سامقة ... لذا فقد عزمت على زيارة المدينة لاستجلاء الأمر.

وبعد أسابيع قلائل حللت ميونيخ، وأطلقت العنان للسيارة لتخترق الطريق القديم شمال وسط المدينة بمحاذاة طريق أنيق يفضى إلى المطار الجديد و"استاد" الألعاب الرياضية ذى الطابع الحداثى. وبعد مرورى بتلك النماذج الصارخة من المنشآت الألمانية، مضت رحلتى لتخترق بعضا من ضواحى العاصمة البافارية.

وانطلاقاً من قلب المدينة مرورا بضواحيها انتهى بى المطاف ليسلمنى إلى مشارف ريفها. وهناك تبدى لناظرى مسجد ميونيخ ... مئذنة رشيقة باسقة وكأنما اخترقت هامات أشجار الصنوبر لترنو إلى السماء، وقبة كالبيضة كأنها منطاد هوائى مشدود إلى الأرض.

ولدى المسجد أبصرت حارسا قصير القامة نحيفا ... رجلا قد بلغ الستين فيما بدا لى، ذا رداء أبيض وقد انتعل خفين. سألته عن سبب شهرة المسجد فهز كتفيه دونما أدنى اهتمام لينفى عن المسجد أية شهرة ... سألته متى بُنِى المسجد فأردف مجيبا بأنه لا يعلم ... سألته من أنشأه، فاعتذر منى ولاذ بالصمت.

ولقد راعتنى أجوبة الرجل ... إذ زرت العديد من المساجد فى أوروبا. ولدى كل مسجد شنفت مسامعى أحاديث متعبدين فخورين عن تفاصيل وقائع بنائه ... بناء اضطلع بجله مهاجرون عمدوا إلى تجميع أمواله فيما بينهم. أما جهل حارس المسجد بما سألته ... أم عساه نسيان وغفلة؟ - فكان مريبا.

واقتربت لأجيل البصر وأمعن النظر فى مسجد ميونيخ ... فبدا لى أنه بناء قديم شيد من خرسانة وأجرة، وقد أصابته يد البلى وبعض من التشققات. أما الأشجار المحيطة به فكانت كما لو أنها تبتلعه ... مسجد ميونيخ، أحد مساجد العالم الكبرى؟! ... ترى أية وقائع احتضنها بنيان كهذا؟!

إنه سؤال أفضى إلى "مشروع بحثى" أخذنى إلى أماكن لم تكن فى حسبانى البتة ... مشروع التهم أوقاتا طالت كثيرا وأربت على ما كنت أخالها تستدعيه. فلقد دار بخلدى أننى حتما مدرك إجابة سؤالى دونما إبطاء إذا عمدت إلى الحديث مع ثلة من أفراد المجتمع المسلم فى ألمانيا ممن هاجروا إلى أوروبا خلال ستينيات القرن العشرين ... تلك الهجرة التى مثلت تحولا ديموغرافيا وسكانيا كبيرين مما

أسهم فى تغيير وجه "الخريطة الديموغرافية" لأوروبا، فذهبت أخمن أن المركز الإسلامى بميونيخ قد بزغ نجمه إبان تلك الحقبة.

بيد أن تخمينى قد جانبه التوفيق ... فما كانت الستينيات، بل كانت ثلاثينيات القرن العشرين نقطة البدء. أجل ... لقد أجريت لقاءات مع كثير من مسلمى ألمانيا حيث دارت حوارات فى هذا الشأن، بيد أننى أمضيت جانبا كبيرا من الوقت أنقب فى خبايا مواد أرشيفية أمريكية وأوروبية. وهناك ... وبين صناديق وملفات حوت وثائق ما برحت محابسها إذ ظلت أسيرة التناسى ورهينة الإهمال، وأخرى قد أفرج عنها مؤخرا ... لملمت خيوط القصص وجمعت شتات الوقائع ... قصص ووقائع تفصح عن أناس ذوى منزلة وشأن أرسيت على أيديهم الدعائم الأيديولوجية للمسجد، ليعقب ذلك حرب اشتعل فتيلها واستعر أوارها فيما بينهم حول مدى أحقية فصيل دون آخر فى الاستئثار بالمسجد والتحكم فيه.

أما الواقع فقد جاء منافيا للتوقعات، فلم يكن لمؤسسى مسجد ميونيخ ما يربطهم بكتلة المهاجرين إلا لماما ... إذ خلصت إلى قيام مجموعات ثلاث بدعم المسجد وتوطيد أركانه بغية بلوغ مآرب بعينها. فكانت طائفة تضم مفكرين نازيين عمدوا إلى التخطيط لاستخدام "الإسلام" سلاحا سياسيا إبان الحرب الكونية الثانية ليستأنفوا الاستراتيجية ذاتها خلال سنى "الحرب الباردة". وطائفة كان سوادها أفرادا من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، شرعوا فى انتهاج المنحى النازى ذاته والإفادة منه أملا فى استخدام "الإسلام" لمحاربة "الشيوعية" وكسر شوكتها. وطائفة ثالثة كان قوامها حفنة من إسلامويين راديكاليين رأوا فى المسجد موطئ قدم لهم فى الغرب. هذا، وقد انتظم تلكم الطوائف عنصر مشترك : لم يكن الهدف إنشاء دار عبادة بقدر ما كان إرساء قاعدة لأنشطة سياسية قد لا تخلو من عنف ممنهج.

ولوهلة أولى، يبدو الأمر ذا نبرة مألوفة ونغمة معروفة. فخلال سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى محاولة تعبئة المسلمين لمجابهة السوفييت فى أفغانستان، الأمر الذى أفضى إلى نشأة "تنظيم القاعدة". أما مسجد ميونيخ فقد اختمرت فكرة إنشائه قبل ذلك بثلاثة عقود ... لدى مفتتح الحرب الباردة لا عند قرب نهايتها. كذا، فقد كان الهدف من وراء إنشاء المسجد جد مختلف. ففى بلدان كأفغانستان، تم توظيف الإسلام لخوض حرب انتظمت جنودا وعتادا. أما هنا، فى ألمانيا، فقد سيق المسلمون نحو "حرب سيكولوجية" – حرب مذاهب وأفكار لا حرب دروع وأوتار. وهنا تبدى لى جليا أن وقائع ميونيخ وأحداثها كانت نذيرا بتطورات ستجرى أحداثها لاحقا ... مستجدات أيديولوجية وعسكرية شمل نطاقها العراق وأفغانستان.

وما أشبه الليلة بالبارحة ... تكتيكات أتت بنتائج عكسية بمثل ما قد جنت على نفسها براقش. فالحرب التى خاضها مسلمو ميونيخ قد تمخض عنها أيديولوجية خبيثة بوجه الغرب : "الإسلاموية" ... وما أدراك ما هى؟! إنها ليست العقيدة الإسلامية التليدة كدين، بل هى نظام فكرى شديد العنف بالغ التسييس ... نظام خرجت نبتة الإرهاب البغيض من بين ثناياه. إنه الإرهاب والعنف اللذان اكتوت كل من نيويورك وواشنطن بنيرانهما خلال هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، ذلك العنف الذى كانت له سابقة تلو الأخرى طالت الغرب عبر تاريخ طويل من إرهاب لم يسلم منه العالم بأسره خلال عقود خلت. أما التنظيم "الإسلاموى" الأبرز فهو جماعة "الإخوان المسلمين" ... تلك الجماعة التى جعلت مسجد ميونيخ "خلية سياسية" لخدمة أهدافها ومآربها. وفى الأغلب الأعم، فقد تولد الجانب الأكبر من أنشطة جماعة "الإخوان المسلمين" فى الغرب جراء ممارسات حفنة قليلة من أناس عُهدت إليهم مهمة إدارة المسجد. لقد كانت ميونيخ نقطة انطلاق تلك الجماعة

وتوغلها فى داخل المجتمعات الغربية.

إن الأشباه والنظائر فيما بين خمسينيات القرن العشرين ويومنا هذا تعد مذهلة بحق. فعلى حين تبقى مجتمعاتنا أسيرة أحداث تجرى وقائعها فى ساحات القتال كتلك التى جرت فى العراق، فإنها الحرب الأيديولوجية ... تلك التى هى مناط تحديد الظافر والمدحور. فاليوم، وبمثل ما كان عليه الأمر فى ميونيخ منذ خمسة عقود خلت، تسعى المجتمعات الغربية إلى استقطاب حلفاء مسلمين يحدوها أمل أن تلقى أناسا يشاطرونها قيمها فى معركة الصراع مع عدو لازم جاثم. ولقد جسدت ميونيخ مغبة هذا النهج وأخطاره دون ترو وإنعام نظر.

إن المجتمعات الغربية قد جعلت إنعام النظر هذا تبعة ثقيلة ومهمة وبيلة. وعلى العموم، فإن وثائق وكالات الاستخبارات وملفاتها حول "الإسلام" لم يفرج عنها بعد. لقد كان من حسن الطالع بما يعد ظرفا استثنائيا أن تمكنتُ من الحصول على أوراق ومستندات تسرد وقائع الأحداث. ففى الولايات المتحدة الأمريكية استلزم الأمر استصدار قرار من الكونغرس للإفراج عن ملفات وكالة الاستخبارات المركزية عن النازيين الذين نجوا من ويلات الحرب الكونية الثانية، أو أولئك الذين دارت حولهم شكوك بضلوعهم فى جرائم حرب. ولعل الأمر يستلزم قراراً مماثلاً للوصول إلى رؤية شاملة بشأن تعامل الولايات المتحدة مع الجماعات الإسلاموية وتعاطيها مع شئون تلكم التنظيمات.

وعلى هذا، فالكتاب يعمد إلى سد ثغرة هنا وتجسير فجوة هناك. ولعل أحد الأسباب التى دفعتنى إلى كتابته فى الوقت الحالى أن شهود عيان تلك الحقبة بات يحصدهم الموت واحدا تلو الآخر، فضلا عن كون الوثائق والملاحظات التى راكمها الكثيرون من أولئك الشهود قد صارت نهبا للضياع وعرضة للفناء. إن كثيرين ممن

أجريت معهم لقاءات وحوارات كانوا قد تجاوزوا الثمانين بل والتسعين، وآخرين كثراً قد قضوا نحبهم مذاك ... فإذا ما انتظر المرء سنوات - وإن كانت قلائل - لكان الأمر يعنى خسارة وهدرا لرؤى ونصائح.

إن أولئك الشهود ... وتلك الوثائق ... يسطرون رواية تأخذنا فى تطواف ما بين هوليوود وجاكارتا ... وواشنطون ومكة. بيد أن الرواية - وكما جرت أحداثها فى ألمانيا - تبدأ فى ساحات الحرب الكونية الثانية.